محاضرات النص الشعري المغاربي

السنة الثالثة ل م د– السداسي 6 الأستاذ: عمّار قرايري

المحاضرة الثالثة:

في تونس: المراحل والقضايا والخصائص

عُرف الشعر التونسي منذ نهاية القرن التاسع عشر بالثراء والتنوع. فإلى جانب الشعر التقليدي الذي لم يبرح المواصفات الايقاعية للقصيدة التراثية وأغراضها من مدح ورثاء وغزل ووصف للطبيعة وإخوانيات، قد تمخض الفكر الإصلاحي الذي انطلق في عهد المشير أحمد باشا عن لون جديد من الشعر انفتح على قضايا العصر لعل أول من كتب فيه محمود قابادو .(1871 - 1813) وقد انبثقت من هذه التجربة في أواخر القرن نفسه حركة عرفت ب(الشعر العصري) امتد حضورها حتى العقد الثالث من القرن العشرين. دعت تلك الحركة إلى هجر أغراض الشعر العربي القديم وفتح القصيدة على قضايا العصر وتوظيفها في تصوير مظاهر التقدم التي أفرزتها الحضارة الغربية الحديثة.

وكان من أبرز أعلامها المؤسسين محمد السنوسي وصالح السويسي القيرواني ومحمد النيفر وحسن المزوغي ومحمد النخلي وعبد العزيز المسعودي، ثم واصل السير في الطريق الذي رسمه الشاذلي خزنه دار ومصطفى آغا وبلحسن بن شعبان.

أما أهم محطة في مسيرة الشعر التونسي طيلة هذه الفترة فهي بلا منازع تجربة أبي القاسم الشابي(1909– 1934) شعرا وحتى نثرا، إذ لا يمكن، بأي حال، مقارنتها من جهتي العمق ودرجة الاكتمال الفني بما أنشأه أي من الشعراء السابقين أو المعاصرين له.

فقد كان صوت هذا الشاعر طيلة السنوات الثماني التي ظهر فيها للناس، من سنة 1926 إلى سنة 1934، بمنزلة الصرخة المدوية التي ارتجت لها أركان الوسط الثقافي التونسي بأسره وامتد صداها حتى المشرق العربي، حيث وجدت تجاوبا واسعا لم يحظ بمثله أي صوت أدبي تونسي آخر حتى اليوم. وهو ما جعل منه ظاهرة فريدة لافتة وأهله ليكون نقطة استدلال مميزة حاسمة في تاريخ الشعر التونسي الحديث والمعاصر.

وإذا رمنا الوقوف في حياة الشابي ومدونته على العناصر الأشد إفادة أمكننا حصرها في أربعة عناصر أساسية: الاثنان الأولان خارجيان هما الحركية التي أحدثها بإعلانه في **محاضرته الخيال الشعري عند العرب** سنة 1929 الثورة على الشعر القديم جملة وتفصيلا وتوفقه، على صغر سنه، إلى تخطي حاجز المحلية الذي كان مضروبا حول الأدب التونسي حتى عصره وإلى احتلال موقع على الصعيد العربي. أما العنصران الثالث والرابع فداخليان. أولهما عمق تجربته والآخر هو تحميله الشعر مفهوما جديدا في محيط طغى على هذا الفن الوفاء شبه التام لمواصفات القصيدة العربية التراثية.

ولكن هذا المفهوم الجديد للشعر لم يقض على مفهومه القديم المتوارث الذي استمر في الأخذ به عدة شعراء وجدوا انسجاما بين رؤيتهم المخصوصة للواقع والذات والكون واقتفائهم آثار السلف. بل إن هذا الاتجاه التقليدي هو الذي كانت له الغلبة كميا في عهد هذا الشاعر بحكم كونه مكونا من مكونات الثقافة الرسمية. ومن أبرز ممثليه الطاهر القصار وجلال الدين النقاش والشاذلي عطاء الله ومحمد العربي الكبادي ومصطفى المؤدب ومحمد فائز القيرواني والصادق مازيغ...

ولقد ازدهر في الفترة نفسها الشعر الغنائي العاطفي الموجه أكثره إلى التلحين والطرب. ومن أهم رموزه محمود بورقيبة ومحمد العريبي وعبد الرزاق كرباكة.

ــ من وفاة الشابي إلى الاستقلال:

إن أول محطة تستوقفنا بعد وفاة الشابي هي الحركة الشعرية النضالية الوطنية الصريحة التي احتضنتها مجلة المباحث في الأربعينات والتي قادها الصادق مازيغ ومحمد زيد، إلا أنها سرعان ما توقفت بتوقف تلك المجلة سنة 1947. لكن مجلة المباحث وإن لم تعمر طويلا فقد مهدت السبيل لظهور أصوات شعرية وطنية مدوية سيكون لها حضور مهم في السنوات المتبقية من عهد الحماية. وهكذا فلئن تغلب على الشعر التونسي في هذه الفترة اللون التقليدي الخالص الذي تجسد في استمرار الحضور القوي لأعلامه مثل الطاهر القصار والشاذلي عطاء الله وجلال الدين النقاش والعربي الكبادي والهادي المدني ومحمد بوشربية وأحمد المختار الوزير، فإن ذلك لم يمنع ظهور بوادر لتشكل تيار

تحديثي قاده شعراء شبان ممن نفخ فيهم الشابي روحه التجديدية فنشروا عددا من القصائد والمجاميع نأوا فيها إن كليا وإن جزئيا عن الخط الكلاسيكي، سواء على صعيد الأغراض أو من جهة الأساليب طبقا لتصورات شتى استلهموها من الظرف التاريخي الذي وجدوا فيه. ومن أبرز هؤلاء الشبان محمد العربي صمادح ومصطفى الحبيب بحري وعمر السعيدي الغريبي.

ولكن أهم شاعر شاب ظهر في هذه الفترة من حيث قوة الحضور وغزارة الانتاج واستلهام خصائص المرحلة مع الجمع بين التنظير للشعر وإنشائه هو بلا منازع منور صمادح (1931–1998) .وهو ما تجسد في مجاميعه الفردوس المغتصب (1954) وفجر الحياة (1955) وحرب على الجوع (1955) والشهداء (1956) وصراع (1956) وفي سوانحه التي نشرها بصحف البلاغ والأخبار والزيتونة. فكان حقيقا بأن يطلق عليه لقب شاعر الكفاح الوطني.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفترة هي التي دخل فيها الشعر التونسي لأول مرة نمط الشعر الحر. وكان ذلك على أيدي بعض الشبان الذين تخرجوا في الجامعات الشرقية مثل مصطفى الحبيب بحري والشاذلي زوكار ومحمد العروسي المطوي وكذلك محسن بن حميدة الذي تأثر بالشعر الحر الفرنسي بحكم ثقافته المزدوجة .

ـ من الاستقلال إلى أواخر الستينات:

لقد اتسمت هذه الفترة بهيمنة الشعراء الكلاسيكيين وكان أكثرهم من المخضرمين على المنابر الأدبية في الدوريات ودور النشر والإذاعة. وإذا تأملنا دواوينهم وقد صدر معظمها بعد الاستقلال وجدنا قصائدهم الجديدة تدور حول ثلاثة محاور شبه قارة هي المديح السياسي واللون الديني والوجدانيات. فالغرض الأول هو تمجيد نضال الحزب الدستوري في عهد الاستعمار وامتداح قائده. وأبرز من كتب في هذا اللون أحمد اللغماني والهادي نعمان والشاذلي عطاء الله والهادي المدني وأحمد المختار الوزير والطاهر القصار ومحمد الشعبوني ...

وأما الغرض الثالث فيضم مختلف الموضوعات الوجدانية من حب وصبابة وسهاد وفراق ولوعة وشكوى وحنين وتأثر بجمال الطبيعة. وغالبا ما تصور هذه الأحاسيس والمواقف بأسلوب تطغى عليه التشابيه والاستعارات والكنايات والمجازات القديمة.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الاتجاه يجسد عطاء جيل أدى دورا لا يستهان به في الحفاظ على اللغة العربية الفصيحة، أحد مقومات الشخصية الوطنية. أما التحديث فقد سار في اتجاهين: الأول تنزل في إطار القديم حرصا على التواصل بين الماضي والحاضر. والآخر كان امتدادا للشعر الشبابي الذي ظهر في المرحلة السابقة. ويمكن تفسير ظهور الاتجاه الأول بأن الاحيائيين فرضوا ضربا من الرعاية على شق من الشعراء الشبان، إلا أن هؤلاء - وقد تشبعوا بروح الشابي التجديدية – لم يخضعوا تماما للوصاية بل طفقوا يبحثون عن مسالك مستحدثة داخل النمط الكلاسيكي نفسه . وذلك بالحفاظ على عمود الشعر طبقا لمواصفاته الخليلية لكن مع التجديد في مستوى الأغراض والموضوعات. أما الاتجاه الشبابي الآخر فقد اتجه إلى الشعر الحر مفضلا إياه على العمود.

وإلى هذا التيار ينتمي جمال الدين حمدي (2000 - 1935) في مجموعته سواحل مهجورة (1974) التي تكشف رغم التزام الشاعر بالعمود عن تجربة عميقة في مضمار الحياة. فقصائده تتفصح عن رؤية سوداوية مقترنة بنغمة شكائية بكائية قوامها الأنين المستمر والتبرم بالحياة. أما الشق الثاني وإن اختار الخروج على عمود الشعر بالكتابة على النمط الحر المشرقي فقد توزعه اتجاهان متباينان: الأول غلب عليه اللون الغنائي على حين اتجه الثاني إلى الشعر النضالي الملتزم.

ــ من أواخر الستينات إلى آخر الثمانينات:

هذه الفترة قد يصدق عليها تسمية مرحلة الغليان. فقد ظهرت فيها عدة حركات واتجاهات شعرية جديدة اتخذ معظمها صيغة التكتل على هيئة مجموعات ترفع كل مجموعة منها شعارا وتتبنى مفهوما معينا لماهية الشعر ووظيفته. ومن أبرز هذه المجموعات ما أطلق عليه التسميات التالية: الشعر الطليعي، الأخلاء، الشعر المنجمي، الشعر الصوفي الكوني القيرواني، المنحى الواقعي، الريح الابداعية الثالثة، الشعر القومي.

قد يكون من الجائز تقسيم هذه الفترة إلى مرحلتين متباينتين: الأولى قصيرة لكن شديدة الغليان تمتد من سنة 1968 إلى سنة 1972 وهي توافق إجمالا السنوات التي ظهرت فيها حركة الطليعة. والأخرى تغطي المسافة الزمنية التي تمتد من توقف الطليعة إلى نهاية السبعينات. فتسمية الشعر الطليعي قد أطلقت على مجموعة من المحاولات الشعرية الشبابية دارت حول سؤال وحيد من أسئلة الشعر العربي لكن بالغ الأهمية وهو سؤال الايقاع واشترك أصحابها في الخروج عن الأوزان الخليلية كليا أو جزئي. والملاحظ في هذا الشأن أن أول شاعر تونسي كتب في الشعر المنثور هو الشابي. وذلك في نصوص قليلة نشرها بجريدة النهضة في نهاية العشرينات ومجلة العالم الأدبي في بداية الثلاثينات.

وفي هذه الفترة ظهرت اتجاهات خمسة هي: الشعر النضالي الملتزم وشعر الفن للفن والشعر التوفيقي والشعر العردارج والشعر الواقعي الاشتراكي. **فالشعر النضالي** الملتزم هو امتداد للاتجاه الذي اختار السير فيه الميداني بن صالح وأحمد القديدي في الستينات. وأبرز ممثليه ممن انشغلوا بالقضايا العربية محمد المنصف الوهايبي وخالد التومي وعمر حميدة ومحمد الخالدي.

وأما **شعر الفن للفن** فينطبق خاصة على ما كتبه آنذاك سويلمي بوجمعة ورياض المرزوقي .وهو يدور حول تصوير هموم الذات الفردية. وأما **الشعر التوفيقي** فيتجسم في الجمع بين طرق الأغراض الوجدانية ومعالجة القضايا النضالية، وقد دعا إليه وكتب فيه الهادي عبد الملك وعبد الرحمان الكبلوطي وعامر بوترعة.. وأما **الشعر العردارج** فمرد تسميته بهذا اللفظ المنحوت إلى طبيعة اللغة التي استخدمها فيه ممثله. وهي لغة وسطى بين الفصحى والدارجة التونسية مع هدم أركان البلاغة التراثية فيها واختص بالكتابة فيه صالح القرمادي(1933-1982).

وأما **الشعر الواقعي الاشتراكي** فهو لون من شعر التفعيلة يقوم على تصوير واقع الكادح اليومي ومعالجة قضاياه المصيرية بلغة عربية فصيحة مبسطة مطعمة بألفاظ من الدارجة وأمثال شعبية. وقد مارس الكتابة فيه محمد المنصف الوهايبي وعمار منصور.

أما المرحلة الثانية من فترة الغليان فقد اتسمت أولا بتوالي بعض السنوات التي قد يصح نعتها بالسنوات العجاف وذلك من جراء اتباع السلطة آنذاك سياسة جديدة تمنح الأولوية للاقتصاديات على حساب الثقافة. فتوقف منبر مهم هو الملحق الثقافي لجريدة العمل وتقلص عدد المنشورات الأدبية ومنها خاصة المجاميع الشعرية. فازدهر الشعر الشفوي في النوادي والمقاهي الأدبية.

ــ من أواخر الثمانينات إلى اليوم:

هذه الفترة سماها بعض الصحافيين فترة الانفجار الشعري؛ وذلك لصدور قرابة الألف مجموعة شعرية فيها جلها باكورات نشرها أصحابها على نفقتهم الخاصة أو بتقاسم تكاليف النشر مع بعض الناشرين. لهذا رجحت كفة الغث وانحصرت الجودة في نسبة محدودة من المجاميع لا تصل إلى عُشر المنشور. وإذا اكتفينا بالنظر إلى الأسماء الأقوى حضورا في الأمسيات والمهرجانات أو التي تثير محاولاتها الجدل في الساحة الأدبية تبدو لنا ملامح المشهد الشعري في هذه الفترة كالاتي :

- استمرار عطاء عدد من رموز الخمسينات والستينات والسبعينات والثمانينات منهم محيي الدين خريف والشاذلي زوكار ونورالدين صمود وجعفر ماجد وسويلمي بوجمعة وفضيلة الشابي والطاهر الهمامي ومنصف الوهايبي...
- عودة شعراء كان لهم حضور قبل هذه الفترة منهم جميلة الماجري وزبيدة بشير.
- إصدار شعراء كان لهم حضور قبل هذه الفترة مجاميعهم لأول مرة منهم عبد العزيز الحاجي وفتحي النصري وعبد السلام لصيلع ونجاة الورغي ومحمد الهاشمي بلوزة وجمال الدين حشاد وسليم دولة وسالم المساهلي.
- ظهور جيل جديد من الشعراء شاعت تسميتهم بشعراء التسعينات. ولئن لم يتكتل هؤلاء في شكل حركة فإن نصوصهم تشترك في سمة غالبة هي طابعها الاشكالي. فهي نصوص تحكمها الأسئلة من جهات المعاني والأغراض والقيم الجمالية والصياغة الفنية. فالذات الشاعرة تلوح من خلال خطابها حائرة قلقة مهمومة.

فالوجود عندها سؤال وطبيعة المجتمع سؤال والشكل الفني سؤال. ولعل لطبيعة المرحلة المتولدة عن انهيار الايديولوجيات دخلا في نشوء هذا التوجه وتناميه. ومن أبرز شعراء هذا الجيل محمد الهادي الجزيري وحافظ محفوظ وآمال موسى وشمس الدين العوني وعادل المعيزي وفوزية العلوي والشاذلي القرواشي وعادل الجريدي... ويمكن أن نلحق بهم بعض الأصوات التي ظهرت في بداية الألفية الثالثة منها فاطمة بن فضيلة وسمير السحيمي ومحمد بوحوش وسلوى الرابحي وشوقي العنيزي وخالد الماجري والمولدي الشعباني ومبروك السياري وغيرهم .